المرأة والمجتمع (*)

سيداتي سادتي : يسرني أن أقف الليلة محامياً عن المرأة ، مدافعاً عن حريتها ، مصححاً بكثير من الآراء الخاطئة التي أحاطت بقضيتها . والحق انني لست الأول في هذا ، فان كثيرين من الكتّاب الحديثين راجعوا الموضوع وقلبوه ، وراجعوا أصوله ، واستعرضوا المسألة بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا وسيكولوجيًّا ، فأمكن أن يصححوا الكثير من الأمور في نصابها . ولقد تناول الباحثون دراسة المرأة : (أولاً) على ضوء الفروق الفسيولوجية والتشريحية بينها وبين الرجل . (ثانياً) على ضوء الفروق السيكولوجية بين المرأة والرجل . (ثالثاً) على ضوء الاحصائيات والأرقام . (رابعاً) على ضوء الوقائع المثبتة في التاريخ والسير . (خامساً) على ضوء البيانات والحقائق المستمدة من علم الحياة — وبخاصة ما جرى في سلسلة التطور — وأني شخصيًّا أفضل أن أبدأ من هذه النقطة الأخيرة : لأصل الى نقطة تهمني جدًّا في البحث ، وهي ان المشكلة كلها نشأت من ان الآلهة رضيت أن يكون نصيبها من العمل حفظ الذرية ، بواسطة التناسل ، والسهر على النوع ورعايته خوفاً من انقراضه . وتركت للرجل النصف الثاني من العمل ، وهو جلب القوت ، والتنقل في سبيله ، والتفنن في اجتلابه . معنى ذلك انها اضطلاعاً منها بالمسئولية الكبرى ، وهي حفظ النوع وانتشاره ، رضيت أن تبقى حيث هي في مكانها — على رأي الانكليز Tends & attends — ومعها أولادها ، في انتظار ما يأتي به الرجل ، أي انها رضيت في سبيل المصلحة العامة ان تقتصد على الرجل وتركت له أن يعولها اقتصاديًّا ، مؤمنة بأن قيمة العمل المنوط بها جديرٌ بأن يعادل ما فقدته من حريتها الاقتصادية ، جديرٌ بأن ينسيها الأسر والقيود التي كبلتها بها الأمومة بالقسمة الحرية التي يملكها الرجل والتي أعطته صورة من صور السيادة أساء استعمالها فيما بعد . إن المسألة البيولوجية مشت على الوجه الآتي : كل الذين درسوا علم الحياة ، يعلمون أن الاميبا تنقسم عدة أقسام لا تلبث أن تنفصل ويصير كل منها جزءاً مستقلا . ولقد كان في الامكان أن تظل هذه الوسائل قائمة ، أي انقسام الخلايا ، ما دامت هذه هي الطريقة

(*) ألقيت بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول في شهر ابريل

التي يتكوّن بواسطتها الجنين وينمو . . . ولكن الذي جرى أن الطبيعة ، حرصاً منها على الذرية ، رأت في مرحلة التطور الثانية ، ان يبقى الصغار على الأم حتى ينضجوا ، ورأت كذلك ان من الجائز ان يعطوا عملاً بدل بقائهم على الأم عاطلين ، فلما أعطوا عملاً مختلفاً تميزوا ، ولما تميزوا ، صار هناك ذكر وأنثى بعد ان كانوا متشابهين ، فلما انفصلوا عن الأم صار كل نصف يبحث عن نصفه الضائع ، وهذا هو الحب في أول حواشيه . فاذا التقى الذكر بالأنثى ابتلعته انثى وطوته في داخلها ، ثم جعلت حولها سوراً يتكوّن في داخله المخلوق الجديد ، وكل ذلك يحدث في مكان أمين . . . هو ما نسميه نحن الآن Home أو Foyer . من ذلك الوقت اصطبغت بصبغة الأمومة ، واصطبغ الرجل بصبغة الحارس الحامي للدار الجالب للقوت المتفنن المغامر . ومن ذلك الوقت صارت الأمومة صبغة الانثى التي لا تفارقها — وصارت الحركة والمغامرة ومظاهر القوة من خصائص الرجل التي لا تفارقه . . . وصارت العاطفة الدائم الخاص بمرأة ، بصفتها أمّاً تضم حولها صغارها برباط المحبة ، وتجتذب الذكر بصفات العطف والحنان . وصار التعقل والتخيل والتحايل والابتداع أشياء أساسية في حياة الرجل ومنطبقة على طبيعة عمله الذي وصفناه وهو طلب الرزق وجلب القوت .

وما دامت الحياة في أساسها استجابة لعوامل خاصة ، فقد صارت فسيولوجية الانثى عند ما تطوّرت وصارت امرأة انسانة ، مماشية لخصائصها كامرأة ، وصار تشريحها عند ما تطورت مماشياً لخصائصها كامرأة ، وصارت سيكولوجيتها ، مطابقة لوصفها كأم تتناسل وتكلف تربية الأولاد والسهر عليهم ، ولما كانت الحياة كذلك تفاعلاً بين الشخص والوسط ، فقد كان خُلُق المرأة — من حيث ان الخُلُق — هو كيفية تصرف ، استجابة لعوامل الوسط .

ولقد كانت استجابتها لكل ما كلفت به كاملة ورائعة . وقامت بواجبها على أتم ما يمكن وساعدتها الطبيعة أحسن مساعدة ، فمن جهة الفسيولوجيا منحتها تركيباً فسيولوجيّاً مطابقاً كل المطابقة لما أعدت له ، فان تركيبها العصبي في شدة حساسيته ، وفي استجابته السريعة للمؤثرات ، والعدد الصمّ في المرأة وافرازاتها المدهشة ، كل ذلك وغيره ، ساعدها على أن تؤدي وظيفة المرأة الأم أحسن تأدية . ومن جهة التشريح : أثبت علم التشريح المقارن ان المرأة هي التي تحمل علم التطور . ولقد قال هاتيلوك : أليس يحق أن المرأة هي التي تحمل علم شباب الانسانية . بدليل ان في الطفل والمرأة تركيب الرأس وغير ذلك من دلائل التطور ، تدل على أن التطور هو فيهما وبهما . . . وأما الانسان البالغ ، فكلما تقدم في العمر ، يتحدر شكله الى شكل القرود ، فهو بذلك يمثل مرحلة سالفة .

فمن يقول إن المرأة أقل في أي صفة تشريحية أو فسيولوجية فهو مخطئ . . . واذا

اعتقد أحد ان الرجل يزيد في صفة من هذه الصفات عن المرأة فقد ضلّ الصواب . فلقد سمع من يقول إن وزن المخ يختلف ، أو أن هذا العضو أو ذاك أكبر في الرجل من المرأة . ان المرأة مخلوق كامل في نفسه ، ومن حيث وظيفته كامرأة — والرجل في ناحية تام التركيب كرجل ، فلا معنى اذاً للتفاضل .

فآتي الآن لنقطة هامة جداً ، وهي مسألة السيكولوجية . وهذا أهم ركن في موضوعنا هذا. لقد نشأت الخصائص السيكولوجية للمرأة من شيئين — الأول : طبيعتها كامرأة ، والثاني : من وظيفتها كأم — ولقد قال الباحث فارنج انه في عدة قبائل كان الرجل مكلفاً بما تقوم به الأم الآن من تكاليف البيت والسهر على الأولاد ، والأم مكلفة بما يقوم به الرجل الآن من السعي وراء القوت . فكان للرجل خصال المرأة ، وللمرأة خصال الرجل . . ومن يدري لعله لو طال العهد بذلك لحدث ما نسميه الخصائص الثانوية للجنس ، أي لانبتت المرأة ونعم جلد الرجل ورقّ صوته . . . وعلى كل يقول فارنج : انه من الظلم أن نجعل وجهاً للمقارنة في عصرنا الحاضر بين المرأة وبين مدنية ، هي في الواقع « مدنية رجال » ! إذ الصواب أن نقارن بين مدنيتين ، واحدة من صنع المرأة والأخرى من صنع الرجل . . .

أما وظيفة المرأة فجعلت مركزها الاجتماعي الحالي مخالفاً لمركز الرجل . ولم يكن كذلك في العصور القديمة ، فان حركة مطالبة المرأة بحقوقها ، حركة حديثة جداً ، والسبب في ذلك ان مركز المرأة قديماً كان مركزاً لا جدال في أهميته في العائلة . فقد كانت هي التي تحيك ، وتطبخ ، وتقوم بالجملة بكل احتياجات المنزل ، وكان الرجل يأوي الى هذا المكان الذي هو كله . وكل شيء فيه ، من صنع ، يدي المرأة وتدبيرها . فلما أخذ العالم يصير ميكانيكيًّا صناعيًّا ، أخذت أغلب الأشياء التي صنعتها المرأة بيديها في المنزل ، تصنع في الخارج . وتشترى من السوق ، وزاد على ذلك ان الرجل نفسه هجر ذلك الركن الذي كانت المرأة تتمكن في اعداده ، رويداً رويداً ، لأنه شغل بمهام العصر الميكانيكي الصناعي واندمج فيه ، وقد مرّ عليه وقت كان هو هو ذاته يصل بيديه ويخلق من فكره . فصار آليًّا ، استعبدته الآلة وقضت على فنه . ولكنها لم تقلل من غروره واحساسه بالسيادة والسلطة .

والخلاصة من ذلك ان المركز الاجتماعي للمرأة تقلقل بتقلقل القيمة التي كانت لها في البيت والعائلة . وبتغير العصر وصيرورته آليًّا ميكانيكيًّا . ولما أخذت المرأة تنادي بحقها ، كانت في الواقع تنادي برضعها في مكانها الذي كانت قيمته عالية ومقدرة ، فصار الرجل يتهمها بسوء الخلق ، والخروج على المألوف . ويندد بسبحتها ، وأخيراً صار هناك من يقول إن المرأة يجب أن تعود إلى المنزل ، وفاتهم شيء يجب أن يلتفتوا اليه ، فاتهم شيء

عميت عنه أعينهم ، وهو أن العالم تغير بتاتاً ، وإن المرأة لا تستطيع أن تعود لما كانت عليه منذ آلاف السنين ، بل يجب أن نجد حلاً يتفق مع أمرين : طبيعتها كامرأة ، ومركزها الجديد في العالم الحديث المتغير . يجب أن نضع الخمر القديم في زجاجات جديدة . أما من يقول ان ذكاءها أقل من الرجل فهو واهم . ما هو الذكاء ؟ الذكاء هو سرعة الادراك ، وسعة الخيال ، والانتباه . أما سرعة الادراك فواضح جداً في المرأة ، بل إنا لنجد ذلك في روايات كثيرة ، فانه اذا ارتبك الرجل والمرأة في موقف ما ، فان المرأة هي التي تلمح شبح الخطر ، وهي التي تنقذ الموقف ، ومن سرعة الادراك ما يسمى بالمأثرات الثانوية ، أي مقدار تبات المدركات الحسية في اللاشعور . فلقد ثبت ان المرأة يبقى في ذاكرتها الأثر الصغير لمدة طويلة . أما الخيال ، فلا ينقصها ، وان كان الرجل يمتاز عنها فيه . ويبقى الانتباه ، Interest . وأعتقد أن كل ما يعاب على المرأة من جهة عدم نجاحها في العلوم والرياضيات ، ليس ناشئاً من قصور ذكائها ، بل من عدم ميلها وانتباهها لهذه الناحية ، لأنها لا تتفق وعاطفتها السيكولوجية المبنية على الانفعال . والانفعال لا يُعنى بالتجريد ، بقدر ما يعنى بالحقائق الجامدة Concrete

ينقلنا هذا إلى انفعال المرأة Emotion فان تركيبها كأم ، جعل العاطفة محور حياتها ، وعقدها جميعاً تخصصت لذلك . وطبيعة الانفعال تميل إلى النظر للحقائق والجوامد .

ومن هذا كانت المرأة مقتصدة أكثر من الرجل ، لأنها تميل إلى الجمع والتجميد .

ومن هذا كانت المرأة لا تميل إلى التحليل ، بل الى الأخذ بجملة الشيء .

فاذا أحبت أحبت بلا تشريح ولا تدقيق . وإذا نظرت في حساب نظرت للجملة . وإذا نظرت لقضية سألت عن النتيجة . وإذا اقتنعت لم تقتنع بالكلام والشرح ، بل بحقيقة ملموسة ، كهدية أو فستان . من هذا يتضح أن المرأة عملية ، بينما الرجل خيالي .

ولقد اتضح من الأرقام والبيانات في المدارس والجامعات ان البنات أميل إلى النظام ، وأكثر اجتهاداً وأحسن نتيجة ، وان كان ينقصهن الخلق والابتكار ، ويختلفن عن الذكور في أنهن يستطعن أن يركزن فكرهن في أكثر من شيء واحد في وقت واحد ، وذلك لضيق الوعي عندهن . ولكن الاختلاف ناشيء على كل حال من أن المرأة ذات طبيعة انفعالية لا تساعد على التجريد والتحليل . وكذلك لا تساعد حدة الانفعالات على النوع في الفنون والآداب . لأن الفن نظائد يحتاج إلى انفعال لا يغمر الوعي ويثيره .

فهؤلاء الذين يقولون ان ذكاء المرأة ناقص يتكلمون عن الذكاء ككتلة ، بينما الذكاء عناصر تتكون معاً تركيباً اسمه (ذكاء) والصفة هي التي تختلف . وهؤلاء الذين يقولون ان

المرأة لا تنتفع لهذا الشيء أو ذاك، يجهلون طبيعة المرأة كل الجهل. فإن في طبيعتها ما يؤهلها لأعظم الأعمال. خذوا مثلاً، طبيعتها العملية، وخذوا مثلاً نجاحها في المسائل الاقتصادية، وخذوا مثلاً اهتمامها بالحقائق الملموسة، وإلمامها بالواقع المحسوس، هذه الفضائل بقيت محصورة في دائرة العائلة، وعلى مرّ الأجيال، نميت هاته الفضائل، وصارت البنت تنمو في وسط تسمع فيه تحقيرها بأذنيها، وترى تفضيل الذكور عليها، وكثيراً ما تسمع ذمّاً في جنسها كله، مما أضاف إلى الثورة الحاضرة، وجعل للمرأة عذراً في المناداة بحقوقها، والواقع انها لا تنادي بحقوق، وإنما تنادي باستعادة مكان ضائع، والاعتراف بفضائل أُنكرت.

فإذا نظرنا إلى المجتمع، الذي تنادي بالدخول في عماده، وجدناه مكوّناً من شيئين: أحدهما كمالي وهو الفنون والآداب. فإذا سلمنا جدلاً انها بطبيعتها لا تنبغ فيهما لأن الفن والأدب يستلزمان مؤهلات خاصة، تركهما للرجل يتمتع بهما ويجاد فيهما — والثاني ضروري — بل هو المجتمع بأجمعه، وهو الصناعة والسياسة. ومن جهة الصناعة فلكم روسيا الحديثة، فإن المرأة أثبتت هناك ان هذا مجالها، ونجاحها في المسائل الصناعية جعل لها مكاناً ممتازاً، ومن يدري ربما كان انتاج روسيا الرائع في الآلات وغيرها هو من زيادة الأيدي بإقبال النساء على الصناعة. ولقد أقبلنَ عليها بدون أن يضايقهنّ الحمل والولادة، فقد تكفلت الحكومة بمراعاة الحوامل، والالتفات للأولاد، حتى لا يكون منهم عائق للأمهات.

أما من جهة السياسة فقد رجح «برداخ» عصور النساء اللواتي تولينَ الحكم. فوجد ان عصورهن من أزهى عصور التاريخ. وذكر ذلك انه في اكثر القبائل نجد النساء هنّ اللاتي يتولينَ حل المشاكل ويتفاهمنَ على المسائل الكبرى.

وكذلك اثبتت البيانات الحديثة، وبخاصة في الحرب الحاضرة، نجاح المرأة في الأعمال الكتابية والادارية. إذا كانت هذه هي المرأة: هي السبب في عمران العالم؟ وهي التي قبلت التضحية، وهي التي رضيت باستعباد الرجل على شرط ان تحفظ قيمتها — وقد ظلمها الرجل، وأشاع انها ناقصة العقل، وأنكر عليها مواهبها — وحين يتغير العصر، وتعصف بالدنيا احوال جديدة، وحين تريد هي أن تبذل مواهبها الكامنة وتقدم استعداداتها للمشاركة في اصلاح العالم، يجيء من يقول لها: مكانك البيت! فتلتفت لترى «البيت»، فاذا الحال غير الحال.. تراه مقفراً وقد خلا من معاني العائلة، وترى الرجل في حياته الجديدة، حياة العمل وحيداً، وتجده مرتبكاً، وقد ستر متاعبه بأنانية كاذبة؟ أليس لها الحق في أن تقتحم هذا المجتمع؟ أعتقد أن لها الحق وأعتقد أنها ستفوز....

دكتور إبراهيم ناجي